Issue 6603-6604 Saturday-Sunday 7-8/3/2020
الزمان – السنة الثانية والعشرون العدد 6603-6604 السبت–الاحد 13 من رجب 1441 هـ 7-8 من آذار (مارس) 2020م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/22. UK

هوس السلطة .. ذكاء سلبي بإمتياز

لويس إقليمس
بغداد

نقرأ بوجود أنواع عديدة لأوجه الذكاء، منها العلمي والعاطفي والمنطقي والنفسي والطبيعي واللغوي والرياضي والاجتماعي وآخرُها الاصطناعي. وهذا ممّا في طبيعة الخلق وما غرسه الخالق في عقول ونفوس مخلوقاته من قدرات وطاقات للإبداع وتطوير البلدان والشعوب.

ولكن لم يشهد العراق وأهلُه وحضاراتُه على مرّ العصور والدهور وطيلة حكم سلالات الملوك القدامى وسلاطين الحكم المعاصرين منذ تشكيل الدولة العراقية، أعتى وأقذر وأشدّ وطأة من ظاهرة ذكاء خارقة وطارئة تمثّلَت بفساد الساسة وممثلي الشعب بعد الغزو الأمريكي القذر في 2003. فقد فتح المحتلّ الانتهازيّ المراوغ أبوابَ الفساد في البلاد على مصاريعها لطبقة سياسية عجيبة غريبة في سلوكياتها الفاسدة والمفسدة. فكان من نتائجها الكارثية تورّط الشعب لمرات بائتمانها على مصالحه وثروات بلاده في كلّ فرصة انتخابية من دون أن يعي نتائج فعلته السمجة الاعتباطية وغير المبرّرة بإطاعة أولي الأمر عشوائيًا وبعناوين شرعية بغطاء الدين والطائفة والمذهب. ومن المؤسف مقابلة هذه الأمانة الشعبية الساذجة بخيانة من جانب الساسة في كلّ دورة انتخابية وتحوّلها إلى ما يشبه سياق عمل متكرّر من أشكال الاستهانة والاستخفاف بآمال الشعب وتطلعاته بحياة أفضل، لا سيّما حين تحوّلت مناصب الدولة ومواقعها إلى إقطاعيات للفاسدين لأشكال النهب واللصوصية والسرقة في عزّ النهار وحلكة الظلام. كما أنّ الطبقة الحاكمة والمتسلطة بعناوين مشوهة عديدة عبر هذه الأفعال الشنيعة الفاسدة قد أفسدت كلّ شيء في البلاد وثبرت العباد حين سطوها على كلّ شيء. فيما لم تبقِ للشعب الصاغر الصابر أيّ شيء سوى اللجوء لرفع راية الوطن الجامعة في صراخها وعويلها ومطالبها والنزول إلى الشارع عبر مليونيات تنسيقية وطنية سلميّة مستقلّة بعد أن تأكّدت استحالة استعادة الوطن المسلوب من قبل أصحاب الضمائر الميتة من هؤلاء الساسة ومن زعامات الأحزاب وأتباعهم من الذين حكموا وسرقوا وسطوا باسم الدين والمذهب والطائفة والعرق والقومية وما سواها.

من هنا، كان رفعُ سقف مطالب ساحات الانتفاضة والتظاهر في الوسط والجنوب بضرورة زوال الطبقة الحاكمة الفاسدة مجتمعة مع ذيولها "شلع قلع" بعد أن تحوّل فسادُها وإفسادُها بحق الوطن والمواطن إلى شكل من أشكال "الذكاء" الخبيث الماكر وإلى قاعدة مؤدلجة في التسويف والمماطلة وفي الاستخفاف والاستهانة بمقدرات الشعب وإلى سعي مشرعَن وممنهج لتجاهل أبسطِ الحقوق الوطنية المشروعة ومطالب الشارع الرافض للمنظومة السياسية برمتها.

فقد تأكد بما لا يقبل الشك عدم وجود النية الصادقة والرغبة الوطنية الحقيقية والإرادة السياسية الصالحة لإصلاح هذه المنظومة في شكلها القائم. كما أنّ ما جرى اتخاذُه من استجابات ترقيعية لمطالب أساسية إصلاحية خالية من أية استراتيجية وطنية وخطط تنموية صالحة في واقع الحال السياسيّ، لا يمكن أن تغني أو تسمن أو تصلح الحال الآيل إلى السقوط في أية لحظة وبأية هزّة شعبية متوقعة في قادم الأيام.

ذكاء اصطناعي سياسيّ عراقيّ، ولكن من نوع ضارّ وفاسد

عرفت البشرية في مسيرتها أشكالاً من القيم وأدوات التطور وتبادل المنفعة خدمة للصالح العام.

كما أبدعت دولٌ متحضّرة بوضع أفضل السياسات والبرامج في خدمة بلدانها وشعوبها وصولاً لتطوير طاقات مواطنيها من أجل حياة أفضل وأكثر رفاهة في عيش الحقوق والتمتع بالخدمات الآدمية ووضع كلّ المبتكرات في خدمة الإنسان.

وآخرها ما بلغ البشرية من تطور في الذكاء الاصطناعي الذي هو حصيلة الفكر البشري وعصارة التقدم في الحياة الآدمية الطبيعية للشعوب التي تحترم مواطنيها وتسعى لتطوير أدواتها وتقديم الأفضل دومًا في خدمة شعوبها.

يوصف أحدث أشكال الذكاء الاصطناعي الذي أخرجته للنور دولٌ متقدمة في الفكر والعلم والتعبير والحريات بكونه تقنية متطورة تسمح للروبوت وأيّ محرك بحثي مبتكر جديد أن يقوم بأداء المهام التي اعتاد البشر على تأديتها اعتمادًا على مفهوم خوارزميّ متقدّم. والهاتف النقال وما سواه من المبتكرات الالكترونية في متناول أيدينا اليوم، تقع ضمن هذا المبتكر الجديد. وهذا دليلٌ على إمكانية تنافس وسائل التقدم الحديثة من أحدث المبتكرات العلمية والتقنية والالكترونية مع القدرات البشرية، إنْ لم تكن متفوقة عليها في بعض معالجاتها وحساباتها.

ربّاط الحديث، ما بلغه العراق في هذه الأيام، من "ذكاء سياسيّ اصطناعيّ" ضمن آخر مبتكرات أدوات الفساد والتسلطُ وإدارة الحكم منذ 2003 بحيث فاقت التصوّرات من حيث الخبث والخداع والنفاق واستغفال العامة واستغلال المال السياسي والسلاح المنفلت خارج سيطرة الدولة. وكلُّها وسائل تنمّ عن "ذكاء سياسيّ ممنهج متوافق عليه" من عموم الطبقة الحاكمة في كيفية ابتكار لغة مصطنعة لإدامة الفساد، جديدة في شكلها وعرضها وقديمة في صورها ومضمونها. فقد استخدم زعماء الكتل وممثلوهم وذيولُهم من ممثلي الشعب آخر صيحة في ذكائهم الاصطناعيّ الفاسد برفض رئيس وزراء مكلّف، ظاهرُها جدليّتُه وعدم مطابقة تواصيفه مع مطالب الشارع المنتفض، وباطنُها خشيةٌ وخوفٌ ورعبٌ على مناصبهم ومكاسبهم ومصالحهم من مغبة انقلابه عليهم وفضحهم ومن ثمّ محاسبة الفاسدين منهم بضغط الشارع الساخن.

من المؤسف أن يجري استغلال المؤسسة التشريعية في صراع الإرادات وتقاسم المصالح وتشارك المغانم عبر سياسة ليّ الأذرع بين الكتل المتصارعة. وآخرها ما جرى من سلوكيات متقاطعات في منع تمرير كابينة علاوي بذات الطريقة التي اعتادت ممارستها كتلٌ سياسية متصارعة على النفوذ والمال والسلطة، بالرغم من الثغرات العديدة المشخصة في الكابينة الأخيرة وفي تركيبتها غير المتوازنة. فما ورد على لسان المكلّف المعتذر عن التكليف في كتاب انسحابه الموجه إلى رئيس الجمهورية يكفي لإدراك الغايات والمقاصد من حيث "تعرّضه لضغوط سياسية لغرض تمرير أجندة معينة على حكومته" التي ولدت ميتة ولم ترى النور أصلاً. وهذا من الدليل القاطع على ما هو قائم ومؤكّد في مكنونات الكتل السياسية ونوايا زعمائها وفي تحايلهم واستخفافهم بمواطنيهم وخشيتهم من تضرّرهم ومن فقدانهم أدوات الطائفية والعرقية التي تؤمّنُ لهم ولذيولهم وأتباعهم ما اتسع لهم من وسائل فساد وإدامة لزخم السرقات والنهب المتواصل بشتى الوسائل والطرق والأدوات.

وهذا ممّا يوقن ايضًا، بعدم وجود النية الطيبة ولا الإرادة الصالحة لإصلاح البيت الوطنيّ وتهدئة الشارع الثائر ضدّ طغمة الفساد وذيوله ممّن ارتضوا لأنسفهم البقاء في قائمة الفساد والتبعية وفي خانات المذهبية والعرق والطائفة التي إنْ أُجبروا على مغادرتها يومًا تحت ضغط الشارع وبتأثير الانتماء الوطني، لفقدوا جلّ امتيازاتهم وتعرّضوا للسحل في الشوارع والمحاسبة الشديدة وإعادة كلّ ما سلبوه وسرقوه من أفواه الفقراء وحقوق الأيتام والأرامل بغطاء الدين والمذهب والطائفة والعرق. فهذه بالتالي ستكون نهاية "ذكاء" الفاسدين السلبيّ المبتكَر.

ماذا بعد السؤال الكبير ؟

مازن صاحب
بغداد

ما بين اعتذار مكلف برئاسة حكومة وبين الفراغ التطوعي لرئيس وزراء مستقيل، ثمة حافة حادة مطلوب من القوى السياسية، سواء تلك التي انتجتها انتخابات 2018بكل ما فيها مثالب الاستبداد الديمقراطي بالسلطة وبن ساحات التظاهر التي ما زالت غير قادرة على انتظام صوتها بحلول تطبيقية.

ماذا بعد السؤال الكبير؟؟

ذلك السؤال الذي يطرح اليوم علنا بانتصار مفاسد المحاصصة على صوت الشعب ، ومواصلة توزيع كعكة السلطة على حساب شعب كل واحد من خمسة منه يعيش على حافة الفقر حسب الجهاز المركزي للإحصاء في وزارة التخطيط، هذا الشعب يواجه اليوم أثام اقتصادية كبرى منها ما ينذر بخطوب كبرى مثل نزول أسعار النفط الى دون الثلاثين دولار ا للبرميل الواحد وتلك المقارنات الرقمية بين رواتب فلكية للدرجات الخاصة ورواتب المتقاعدين ناهيك عن من يعيشون تحت خط الفقر(اقل من دولار باليوم) فيما من انتخبهم حوالي 20%من العراقيين في انتخابات 2018 ?مازالوا عند مواقفهم في مزايدات بح صوت المرجعية منها ، ولم تتفق ساحات التظاهر على حلول مطلوبة ، ولم يظهر أي تنازل حقيقي لهذه المطالب التي رفع سقفها مرات وانخفض مرات أخرى ويبقى السؤال مطروحا : ماذا بعد ؟؟

اعتقد الإجابة تبدأ بسيناريوهات سياسية بحتة ، الأول هو المعادلة الصفرية بالتغيير الشامل، مطلب مرفوض وهناك من يدافع عنه مرة بالتهديد بالانفصال كما يفعل الاكراد في بيانهم المنتصر على اعتذار رئيس الوزراء المكلف، ومرة أخرى بقوة التهديد بالتقسيم الى فيدراليات كما يفعل البعض من الداعين لأقاليم عراقية وفق المذهب الطائفي او وفق المنطقة كما يفعل في غرب العراق وجنوبه وثالثة بالسلاح المنفلت لدفاع عن حكم من يدعي انه يمثل الأغلبية الشيعية فيما هذه الأغلبية السكانية تقع أيضا وفق حسابات الفقر في قعر قائمة المحافظات العراقية فالمثنى على سبيل المثال هي الأكثر فقرا بعدها الديوانية ، لذلك المعادلة الصفرية غير فعالة في هذا الاستبداد الديمقراطي بعنوان الحكم البرلماني !!

السيناريوهات الأخرى تتمثل في الاحتمالات التالية :

الأول : تحشيد القوى البرلمانية الشيعية من جديد لتشكيل اغلبية برلمانية تقود الراغبين من السنة والكرد في اتفاقات المحاصصة لديمومة ذات النظام القديم من دون أي تغيير في المشهد السياسي الا في تحليلات وعاظ السلاطين التي ستجد الف سبب وسبب للحديث عن أهمية المحاصصة للحافظ على وحدة العراق !!

وهذا يعني إمكانية الصمت الإعلامي والعملي عن قرار مجلس النواب الذي وصفه تسريب صوتي لرئيس البرلمان بانه قرار شيعي لإخراج القوات الامريكية من العراق، كما يعني ضرورة وجود اتفاق ما بين واشنطن وطهران على النموذج الجديد للحكومة القبلة وحقيقة دورها في الانتخابات المبكرة وسبل مواجهة الازمة الاقتصادية الكبرى التي تنتظر البلد.

ومثل هذا السيناريو تأتي مدخلاته من واشنطن وطهران وليس من داخل مجلس النواب ،وفي المشهد الحالي لا اعتقد إمكانية حصول مثل هذه المدخلات الا بتنازل من كلا الطرفين .

ثانيا : تعديل المشهد بتشكيل (حكومة غير جدلية) من شخصيات سياسية يمكن وصفها بالأقل سوءا من بين صفوف مفاسد المحاصصة ، بقاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله ، وهذا يحتاج أيضا الى تنازل جميع الأطراف البرلمانية وليس تصعيد سقوف مطالبها لتترك للمرشح الجديد لرئاسة حكومة انتقالية فرضية اقناع ساحات التحرير بان حكومته تلبي الحد الأدنى المتوقع من مطالبهم ، وأيضا مثل هذا السيناريو يبقى مقبولا عند البعض ولكته يحتاج الى ضغط شعبي أوسع مما حصل حتى اليوم لإجبار مجلس النواب على تخفيض سقوف مطالبهم بديمومة امتيازاتهم والدخول جبرا الى قبة البرلمان للتصويت على برنامج إصلاحي حقيقي وليس مجرد كلام هواء في ، ومثل هذه الالتزامات ستظهر لاحقا ما بعد الانتخابات المقبلة .

ثالثا: في حالة الفشل في مما تقدم ، يمكن ان يصار الى تشكيل حكومة طوارئ سياسية مختصرة بإشراف اممي وفق قرار يمكن ان يصدر من مجلس الامن الدولي وهذا الخيار يدعو اليه البعض للتخلص من سطوة أحزاب المحاصصة ، ولكنه بالنتيجة سينتهي الى تقسيم العراق وديمومة نموذج حكومة اتحادية لا تملك غير المصادقة على حسابات موازنة عامة تقوم الأقاليم والمحافظات بالتصرف فبها ناهيك عن وجود السلاح المنفلت الذي سيؤدي بأمراء الطوائف الى تأسيس(جمهوريات ظل) في عموم محافظات العراق على غرار نموذج الإقليم الكردي.

الحل البديل ان يصاحب القرار الاممي قوات لحفظ السلام تفرض الامن والأمان وتقديم المساعدة اللازمة في اجراء انتخابات وفق التمثيل الفردي ، ودون ذلك لن يبقى هناك شيء اسمه العراق سوى خارطته !!

روح الشباب والخروج من عباءة الأسلاف

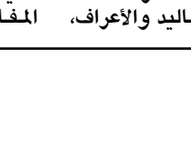

علاء لازم العيسى
البصرة

في كلّ زمان ومكان يخرج الإنسان من ظلمات رحم الأمّ الثلاثة – على الأغلب الأعمّ – طليق الحواس ، لكنه مكبّل الذات والعنوان، فهو مجبور على انتمائه القبلي والقومي والديني والمذهبي والاجتماعي والجغرافي ، ولم يخيّر في أيّ الأبوين يختار ، وحتى الاسم الذي سيرافقه طيلة حياته ، ويلازمه ملازمة الظلّ لظلّه ، ليس له الخيار في رفضه أو قبوله إلّا بعد عمر طويل ، وكذلك ليس له الحقّ في اختيار اللغة التي سيتكلم بها وبواسطتها يتمّ تفاهمه مع بني جنسه .

حدود مرسومة

وبعد وصول المولود إلى مرحلة التمييز والبلوغ ، يجد نفسه مكبّلًا أكثر مما كان عليه في بداية الأمر حين ولادته، فلا سلطة له على عمره الذي ينفلت رغمًا عنه، ولا سلطة على التقاليد والأعراف، ولا سلطة له على طرائق التربيّة والتعليم، ثمّ يجد نفسه وقد دخل على مفاهيم اجتماعيّة محدّدة ، ومنطق محدود لا يمكن تجاوزه أو الخروج من حدوده المرسومة بمهارة فائقة وعناية ، فهناك رموز دينيّة وقوميّة يجب عليه تقديسها ، ومعتقدات ومذاهب تؤخذ كمسلّمات لا يمكن تجاوزها أو انتقادها ، ولو تجرّأ وانتقدها عُرّض للقمع والتسقيط والنبذ والتشريد وربّما القتل ، وحجم العقاب وشدّته يعتمد على ثقل المنتقد العلمي أو الاجتماعي أو السياسي .

البرمجة العرفيّة

ومن المصائب التي تضاف لما سبق من القيود ، هو إنّ أكثر الناس لا يلتفتون إلى نقطة مهمّة كثيرًا ما أثّرت وتؤثّر في سلوكهم اليومي ، وفي منظوماتهم المفاهيميّة والقيميّة ، وفي مواقفهم وقراراتهم المستقبليّة والمصيريّة ، هي أنّ أكثرهم – بوعي منهم أو بلا وعي – مبرمجين لا خيار لهم في مواقفهم وتصوراتهم ، مبرمجين لا بمعنى المسألة المشهورة في الفلسفة وعلم الكلام والتي عُرفت بإسم ((الجبر والإختيار)) ، واستعملت بمعنى تفويض الأمر إلى الله تعالى بحيث يصير العبد بمنزلة الجماد لا إرادة له ولا اختيار ؛ وإنّما بمعناها العرفي التي نتلقاه مع قطرات الحليب في طفولتنا ، وهي أنّ الشخصيّة الطبيعيّة والناجحة – كما يحاول الآباء والأمّهات تعريفها لنا – لا تكون إلّا عندما يكون الفرد قادرًا على تكييف طبيعته الخاصة مع البيئة الخارجيّة . إنّ مثل هذه الأحكام الجائرة ، والأعراف الفاسدة ، تتعارض معارضة شديدة مع أساسيّات التربية الحديثة التي تحاول توجيه الآباء والأمّهات والأساتذة والمربّين إلى بذل الجهد إلى مساعدة الطفل في تحقيق فرديّته ومحاولة اكتشاف مواهبه الخاصة ، لكي لا يكون في حياته نسخة مكرّرة من بقيّة الأطفال ، فيحرم من قدراته الابتكاريّة والإبداعيّة ، ويحرم مجتمعه من نتاجات عبقريّته الكامنة ، كما أنّها تتعارض مع بعض مواريث الحكمة التي سبقت الزمن وعلماء التربيّة في الدعوة إلى التحرّر الفكري والانطلاق ، فقد ورد عن الإمام عليّ بن أبي طالب قوله ((لا تقسروا أولادكم على تربيتكم فإنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم)).

إنّ هذه القيود التي ذكرناها تمنع العقل من الإنتاج وتحوّله إلى عقل مستهلك ومجتر فقط ، وكما يحدث التطهير للمدن والقرى والأرياف ، هنالك تطهير يحدث للعقول والمشاعر والتوجّهات ، وإذا كان التطهير الأول إحياء لتلك الموجودات والمنشآت ، فإنّ الثاني قتل متعمّد تقوم به قوى سياسيّة واجتماعيّة أكبر وأوعى منّا تتعمّد الإقصاء والسحق المتعمّد لكل مشروع شبابي تجديدي إنتاجي تقدّمي نافع للإبداع والتغيير نحو الأفضل والأرقى .

مدفأة ديكارت

أخيرًا فإنّ كلّ هذه المقدّمات مجتمعة ، تدلّ دلالة واضحة على أنّ صنع العقول المستهلكة وغير المتحررة لا يُنتج إلا مجتمعًا هامشيًا اتّكاليًا لا نفع فيه ، وعلى العكس من ذلك فإنّ تدريب الأبناء والأحفاد على الإيمان بعقولهم وقدراتهم ، واحترام آرائهم ومشاريعهم ، وإعادة النظر بعقائد الأسلاف ونظريّاتهم ومناقشتها إذا اقتضى الأمر ، لا يعني الضّلالة أو السقوط بل ربّما يكون فاتحة خير لمستقبل أفضل وأروع ، وهذا ما أثبتته التجارب التاريخيّة ، وخير مثال على ذلك قصّة الأب الشرعي للفلسفة الغربيّة الحديثة (رينيه ديكارت) ومدفأته ، إذ خطر له وهو جالس أمام المدفأة في يوم بارد أنّ المصنوعات التي اشترك في صنعها كثيرون تجيء أقلّ كمالًا من المصنوعات التي أخرجها صانع واحد ، والبيت الذي يشيّده بنّاء واحد يبدو أكمل من بيت يشارك في بنائه كثيرون ، وكذلك الحال في العلوم شارك في تكوينها على مرّ العصور كثيرون فجاءت خلوًا من اليقين وحفلت بالأخطاء والأضاليل.

ومن هنا يجب أن ينهض بإعادة بنائها فرد واحد ، فقرّر أن يكون هو ذلك الفرد الذي أخذ على عاتقه تغيير العالم لوحده ، وأخذ مكان الفيلسوف أرسطو في مدارس العالم المسيحي ، مع اتّصاله الوثيق بالماضي وتراثه .

المبدع ابن إدريس

إنّ إثارة روح النقد الحر لدى الشباب ، وتحويلها إلى ملكة نفسيّة راسخة ، تدفعه إلى محبّة الحقيقة وإثراء العقل ، وإضاءة الطريق إلى الإبداع ، وهذا الإبداع لا يختصّ بجانب دون آخر ، بل يشمل كلّ الجوانب الحياتيّة ، وكما يشمل العلوم الدنيويّة فهو يشمل العلوم والمعتقدات الدينيّة والشرعيّة أيضًا ، وما إشارة السيّد المجدّد محمّد باقر الصّدر في كتابه ((المعالم الجديدة للأصول)) إلى توقّف النمو الذي أصاب الفكر الحوزوي في النجف الأشرف في المجالين الأصولي والفقهي طيلة قرن كامل بعد وفاة الشيخ الطّوسي ، واستمرار ذلك الركود إلى حين ظهور الفقيه المبدع محمّد بن أحمد بن إدريس المتوفّى سنة (598 هـ) الذي كان له دور كبير في بثّ الحياة من جديد في فكر الحوزة العلمي بعد وفاة الشيخ الطوسي بمئة سنة ، بعد أن تفاعل مع آرائه وكسر طوق النزعة التقديسيّة التي حظي بها الشيخ الطوسي عند بعض تلامذته فـ ((رفعه في أنظارهم عن مستوى النقد ، وجعل من آرائه ونظريّاته شيئًا مقدّسًا لا يمكن أن ينال باعتراض أو يخضع لتمحيص)) ، أقول : وما إشارة السيّد الصدر إلى تلك الواقعة إلّا دعوة واضحة منه لضرورة محاربة الجمود العلمي والفكري المتأتي من استفحال النزعات التقديسيّة ، التي تعدّ من أهم أسباب الوقوف بوجه كل تقدّم علمي واجتماعي ، وبوجه كلّ إبداع جديد.

شهق الناس

الطب الرحيم

ياس خضير البياتي
الامارات

لا أخفى عليكم انني كنت قريبا من الطب كمهنة إنسانية، بل كنت احلم ان أصبح طبيبا وفاء للوالدة، وللصورة النمطية التي ترسخت في ذهني لإنسانية الطبيب، وإنقاذ ه للناس من المرض والموت، وتضحيته في تضميد الجراح وعلاج الأدواء، لأن الله جعل رحمته على يده، خاصة انني كنت في طفولتي أرى لافتات تنتشر في احياء بغداد كتب عليها (العلاج للفقراء مجانا)، فقد كانت هذه الاحرف الإنسانية تنتزع مني قلق المهنة لتمنحي حرارة الحياة، وتزيد من محبة هذه المهنة التي تتوهج بالإنسانية ونكران الذات.

واتذكر أيضا ان الطبيب آنذاك كان إنسانيا برحمته للفقراء، وحكيما في التعامل مع مرضاه، وطويل البال في الصبر والاقناع، وأكثر لطفا وارحية في تواصله معهم، لأن التعامل الإنساني مع المريض هو نصف العلاج كما يقولون.

وانا أتذكر شريط الماضي، وامكنة التواصل، ومعدن البشر، أحاول أن اقارن بين ازمان مختلفة بالثقافة والقيم ومتطلبات الحياة، دون أن أنسى دوران الشمس وكسوفها الاجتماعي، وتغيرات عواقب المناخ وعلاقته بالأمزجة البشرية كما يرى الخالد ابن خلدون، لذلك أحاول عدم التعميم بين طبيب الامس واليوم، بمقاسات الأزمنة والظروف، لأن الطبيب في كل العصور ليس من نفس الطينة، لكنني أستطيع القول ان الطب يميل اليوم الى تحويله من مهنة إنسانية إلى اخرى تجارية بحتة ،تنخفض معها منسوب الرحمة الى درجة ان اصبح الطبيب في بلادنا موضع نقد لاذع لهذه المهنة التي فقدت من بريقها الإنساني ،وعاد الطبيب يشكل في الذاكرة الجماعية صورة للجشع والابتزاز ،مع ان صورته الإيجابية ان يسمع الشكاوي لا ان يقولها، ويجبر الخواطر لا ان يقمعها، ويضمد الجروح حتى ولو كان ينزف من الداخل ، ويسكت انين المُتعبين لا ان يزيد من اوجاعهم .

ولأن العراق اليوم موبوء بالفقر والمرض، وشعبه يعاني من الامرين بسبب السلطة الحاكمة المريضة بشهوة المال وعقدة النقص، والتي جلبت لنا وباء الأمراض المزمنة والمناعية والنفسية بدلا من الصحة والسعادة والرفاهية، ورفعت لنا منسوب الفقر الى اعلى درجاته، ولوثت البيئة باسنة المجاري المتهالكة، واكوام المزابل، ومستنقعات البعوض، واستوردت لنا أنواع الفايروسات الإيرانية من اجل تحقيق ساديتها للتلذذ في سماع انين الشعب الذي يفطر القلب وجعا.

لذلك ينبغي ان يمتحن الطب، وتمتحن إنسانية الطبيب يوم الشدائد والازمات والكوارث والفقر، وما أشدها اليوم في عراق يغرق بالفقر والجوع والمرض والاوبئة، وتزداد الشكوى مع الأسف من جشع الطب، او ممن حولهم الجشع الى تجار بوزرة اطباء، ولأن هناك استثناءات تبعد الغالبية العظمى من الأطباء المخلصين لقسم المهنة، من تهمة تحويل الطب من مهنة إنسانية إلى اخرى تجارية بحتة، تفقد المريض كرامته وتثقب جيوبه.

لكن الاعتراف واجب وفضيلة ان نقول بصوت عال ان ما يجري من ممارسات غير إنسانية في مهنة الطب تدمي القلب، وتشعل فينا اليأس والحزن، فما نسمعه من الناس قصص لا تليق بهذه المهنة الإنسانية وبأخلاقياتها، ولا بالعراقي صاحب الشهامة والموقف، خاصة وقت العوز والمحن.

فقد أصبحت عيادات البعض دكاكين تجارة لسرقة مال الفقير، ومافيا مركبة بين العيادة والصيدلية والمختبرات لعقد الصفقات، من خلال توجيه لعيادات أو مختبرات بعينها، للقيام بالعديد من الفحوصات، بهدف نهب المال الحرام من المريض الذي لا يجد أحيانا وجبة طعام صحية يأكلها، او مبلغ يدفعه من راتب تقاعد شحيح.

التعميم لغة الجهلاء بالتأكيد، ومن باب الإنصاف ثمة أطباء في المجتمع العراقي غاية في الإنسانيّة والرقي، وأن هناك الكثير ممن أفنوا زهرة شبابهم في تقديم الخدمات الطبية للمرضى، وتفانوا في تضميد الجراح وعلاج الأدواء، متغلبين على قساوة ظروف العمل في العراق، ونقص الإمكانات، بالصبر والأناة والروية والرفق والحكمة، تنبع عنها أخلاق حميدة، أبرز ما فيها، الرحمة والشفقة.

ومثلما يوجد أطباء امتهنوا الطب تجارة لجمع المال وابتزاز الفقراء بقسوة قلب ظالم، هناك أطباء وهبوا حياتهم ليداوا جراح المرضى، ويمسحوا عنهم الحزن، ويسحبوا الهموم والآلام، ومن حقهم علينا ان نحتفي بهم بالحرف والقول الصادق وتقديمهم نموذج ناجح للأخرين، لكي تنتعش وتنمو الجوانب الانسانية وتتفوق على الجشع المادي.

كم يشعر العراقي اليوم بالزهو عندما يرى في حارات وشوارع الوطن لافتات الأطباء تتزين بالرحمة والايثار والوطنية، وتتزخرف بحروف الإنسانية والتضامن الاجتماعي (العلاج مجانا للفقراء)، ويرى منظمات تتصدر المشهد الانساني بالرحمة مثلما فعلت منظمة (أطباء بلا أجور) التي يعمل ضمنها 300 طبيب عراقي تعالج يوميا عشرات المرضى، وتصرف لهم أدوية، وتجري لهم تحاليل مخبرية، وعمليات جراحية، من دون مقابل.

ونرى آخرون في الخارج من أطباء وجمعيات عراقية تنتخي للألم العراقي، وعيادات طبية لعراقيين تفتح أبوابها لكل الفقراء، كما فعل طبيب القلب العراقي المعروف عبد الجليل الخزرجي منذ سنوات في أبو ظبي بالأمارات عندما جعل يوم الخميس يوما مخصصا للفقراء، ليؤازر اخوته القادمين من العراق، ويزيد عليها ليجعلها لفقراء العالم من كل حدب وصوب، فيشعل محبة الناس بالعراقي الفارس المثالي بالرحمة والشهامة والإنسانية.

الطب له مكانة في كل العصور والاديان ، وللأطباء كرامة لا تمس، والامام الشافعي اختصر المختصر بقوله (لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب)، لكن مشكلتنا اليوم ان السلطة الفاسدة حولت الحياة العراقية الى فيروسات تفتك بالبشر، ولوثت بيئة الحياة والعمل بمفاسد الجشع وشراء الذمم، لتنهار القيم، وتقتل قدسية العمل، فلم تنجوا مهنة الا واصيبت بفيروس الكورونا، حيث رجل الدين يدمر الاخلاق، والقاضي يدمر العدالة، والجامعة تدمر العلم، والاعلام يدمر المعلومة، والتاجر يدمر الاقتصاد ، والسياسي يدمر الوطن، والطبيب يدمر الصحة، والانسان يدمر اخيه الانسان.

ماذا بقي لنا من قيم بالله عليكم ؟